

التصحيح

- فَأَيُّهَا تَلِّ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ ،
- الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ، وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ،
- فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا .

ما كاد ينتهي رسول الله ﷺ من حديثه بين ظهرائي المسلمين بمسجده بالمدينة ، حتى طرق باب المسجد وفد من خزاعة وبنى كعب ، يتقدمهم عمرو بن سالم الخزاعي ، فسلم . . ثم أنشد يقول :

يا رب إني ناشد محمدا حلف أئبنا وأبيه الاتلدا
قد كنتمو ولدا وكنا والدا ثمت أسلنا فلم ننزع يدا
فانصر هداك الله نصر أعتدا وادع عباد الله يأتوا مددا
فيهم رسول الله قد تجردا إن سيم خسفا وجهه تربدا
في فيلق كالبحر يجرى مزبدا إن قريشا أخلفوك الموعدا
ونقضوا ميثاقلك المؤكدا وجعلوا لي في كداء (١) رصدا
وزعموا أن لست أدعو أحدا وهم أذل وأقل عددا
هم يبتونا بالوتير (٢) هجدا وقتلونا ركعا وسجدا
وسكت عمرو ، بينما قال رسول الله ﷺ :

— نصرت يا عمرو بن سالم . .

ثم رفع النبي ﷺ بصره إلى السماء من إحدى نوافذ المسجد ، وأشار بيده إلى سحابة قائمة تخرق كبد السماء ، وقال :

— إن هذه السحابة لتستهل بنصرة بني كعب !

وما لبث المسلمون أن أدركوا النبأ العظيم . . نبأ انقضاض قريش وحلفائها من بني بكر وبنى الديل ، على خزاعة وبنى كعب ، وهما

(١) كداء : جبل بأعلى مكة .

(٢) الوتير : اسم ماء خزاعة وبنى كعب .

البطنان اللذان دخلا في عقد المسلمين يوم الحديبية ، وصدقا الرسول وعده بصدق الإيمان ، وإن نأت بهما الدار وعظم عليهما خطر الجار . . لقد انقضت عليهما قریش وأختنتهما قتلا وأسرا وجراحا وتعذيبا ، فنقضت بذلك عهدا مع رسول الله ﷺ على ألا تقوم بينه وبينها حرب خلال عشر سنين . .

وسنحت الفرصة الذهبية للمسلمين كي تأخذ قریش المدرس الأخير ، ليؤول أمرها إلى ما آل إليه أمر سائر البطون في ربوع الجزيرة كلها .

ودوى نفير الزحف ، وخرج رسول الله ﷺ لفتح مكة ، في أعظم جيش دب بقدمه على وجه الأرض ، يضم تحت راياته عشرة آلاف مقاتل ، قد انتظمت صفوفهم في كتائب مهيبة متعددة ، يتقدم كلا منها سيف من سيوف الله . .

ووقف الجيش العظيم عند منافذ البلد الحرام ، يتأهب للدخول من مداخل عدة . . وأخذ القرشيون في هلعهم يترنحون كالسكارى في انتظار سفيرهم أبي سفيان ، لا يعرفون ماذا يفعلون . . إنهم يعتقدون أن دماءهم قد صارت حلالا للرسول ﷺ .. فلا ملجأ لهم من الموت إلا العفو أو الفرار من الحصار لو يستطيعون . . ولكن هيهات هيهات ، فكل الأمرين لا يزال بعيد الاحتمال !!

وأقبل أبو سفيان وقد أسلم لله رب العالمين ، ووقف على ناقته بين أهل مكة ، وصاح فيهم يقول :

— يا معشر قریش ، هذا محمد قد جاءكم فيها لا قبل لكم به ، فمن

دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن . .

وتسرب القرشيون إلى مآمنهم فزعين ، وانكن عكرمة بن أبي جهل - وقد سبق أن نذر نفسه اللات والعزى لحرب رسول الله ﷺ - أبي أن يضع السلاح ، أو يرضى بما رضى به أهل مكة . . فجمع أجناده وفتيانه ، من بني مخزوم لملاقاة المسلمين ، فإما القتل في ميدان الحرب ، وإما الفرار تحت ظلال السيوف !!

ودخل رجل من أصحاب عكرمة على امرأته وهي تنهره وتقول :

— لا يخذعك عكرمة يا حماس بن خالد !!

وأجابها حماس وقال :

— لا تدينك بخادم من أصحاب محمد !!

وأقبل خالد بن لويد على رأس كتيبة من كتائب الله ، فتصدى له عكرمة في الخندمة . . وكان لقاء عنيفا انكسرت له شوكة فتيان بني مخزوم ومن معهم بعد ساعة . . وفر عكرمة أمام ابن عمه خالد . . فر إلى مجاهل الصحراء حيث لا يعلم مصيره أحد . .

وعاد حماس بن خالد إلى امرأته خفية ، فقابلته مستهزئة وقالت :

— أين الخادم ؟!

فأطرق برأسه في ذل وانكسار . . ثم أنشد يقول :

فأنت لو شهدتنا بالخندمة إذ فر صفوان وفر عكرمة

وأبو يزيد كالعجوز المؤتمة لم تنطق في اللوم أدنى كلمة

إذ ضربت بنا السيوف المثلمة لهم زئير خلفنا وغنمة !!

ودخلت كتاب الله مكة من كل فج . . ووقف رسول الله ﷺ يعلن على ملا الناس عفوه الكريم . . واستثنى منهم جماعة قليلة على رأسها عكرمة بن أبي جهل . .

ولكن أين عكرمة اليوم ؟ إنه لا يزال يطوى صحراء العرب هاربا في طريقه نحو اليمن ، يفكر فيها قدمته يده في تلك الأعوام الطوال ، التي عاды فيها رسول الله وأصحابه أشد العدا ، حيث لم يدفعه إلى ذلك كله سوى الخوف على هذا المجد المؤثر أن يضع من يده بعد أن صار سيد بني مخزوم ، وأعلام مكانة ، وأعزهم جاها ، وأوفرهم مالا ومتاعا . . إنه اليوم يريد شريدا لا يطرق قلبه سوى أحاسيس الموت في كل لحظة على أيدي المسلمين . . !

ووصل عكرمة إلى اليمن ، ولكنه لم يستطع البقاء فيها من شدة الخوف ، فيمم وجهه بعد تفكير عميق شطر الحبشة التي كانت الملجأ الذي أوى إليه المسلمون من قبل في هجرتهم الأولى ، يوم أن كانت مكة هي مرتع الطغيان لقريش . . وميدان التنكيل بأعداء اللات والعزى من أهل التوحيد . . !

وتحركات السفينة تقل في جوفها عكرمة ومن معه ضمن من فيها إلى الحبشة . . وما أن سارت قليلا حتى أصابتها ريح عاصف ، وكاد أن يتلعها اليم بأفواهه الفاغرة من كل جانب . . وأمسك من فيها عن الكلام . . ونظر ربابها إلى عكرمة ومن حوله ، وقال :

— أخلصوا ، فإن آلهتكم لا تنقئ عنكم شيئا هاهنا . . !

وصمت عكرمة برهة . . ثم رفع رأسه ، وقال :

— إن لم ينجنى في البحر إلا الإخلاص ، فلن ينجنى في
البر غيره !!

ثم صمت برهة أخرى ، رفع بعدها بصره إلى السماء ، وقال :
— اللهم لك على عهد إن أنت عافيتني مما أنا فيه ، أن آتي محمدا
حتى أضع يدي في يده ، فلا جدنه عفوا كريما ..

وكان إدارة السماء أرادت أن تنجى عكرمة ، ليختم حياها
بالتوبة النصوح ، وليدرك أن آلهته السماء ، التي أخلص في سبيلها
طوال مرحلة الشباب ، لن تستطيع حمايته في البحر ، بعد أن نكل
بها المسلمون على ملا عبيدها في البر .

وأسلمت أم حكيم زوج عكرمة وابنة عمه الحارث بن هشام يوم
الفتح .. ثم استأمنت لزوجها من النبي الأعظم فأمنها ، فخرجت مع
غلام لها رومي للحاق به ، وبينما هما ببعض الطريق إلى اليمن ، إذ
راودها الغلام عن نفسها ، فأطعمته .. وظالت تماطله حتى أتت حيا
من العرب ، فاستعانت بهم عليه فأوثقوه ، حتى لا يقتله غير عكرمة
إذا عاد .

وواصلت أم حكيم سبيها .. وكانت المفاجأة .. فهذا عكرمة
— وقد نجاه الله من الغرق — لا يزال متحيرا ، كيف يقبل على رسول
الله بعد كل ما كان ؟ حتى رأى نفسه وجها لوجه أمام زوجته المخلصة ،
فما أن لحها حتى هاجست نفسه من شتى العوامل ، ولكن الزوجة
بادرته بقولها :

— جئتك من عند أوصل الناس وأكرمهم ، وقد أمنتك .

وعاد عكرمة .. وبينما هو في الطريق إلى مكة ، أخبرته زوجته
بأمر الغلام ، فعمد إليه فقتله ، ثم واصل طريقه ليلتقي برسول الله
ﷺ .. وما أن طرق باب مكة أيلا حتى شمله الفزع من اللقائهم ،
فتوقف عن الولوج حتى رأى بعينه راية السلام ترفرف على سماء
البلد الحرام ، فتشجع ودخل ، وسلم أمره للمقدور ..
وكانت ساعة رهبة ، لم ير سيد بني مخزوم في حياته مثلها أبدا ..
ولم يطال فزع عكرمة عند باب النبوة ، حتى رأى ما لم يكن في
حسابه أبدا ... لقد خرج إليه الرسول وعانقه .. وقال :

— مرحبا بالراكب المهاجر !!

هنالك طغت على عكرمة موجة من النور ، محت ظلام قلبه في
لمحة البصر ، وأحلت مكان عداوته الطاغية لله ورسوله بالأمس ،
حبا طاغيا جارفا .. فما ملك نفسه أن قال للنبي :

— والله لا أدع مالا أنفقت عليك ، إلا أنفقت في سبيل الله مثله ..

وتمر الأيام ، فتأخذ التوبة بكل ذرة من روح عكرمة ، فلا يراه
القرشيون إلا باكيا ، لا تفارق عيناه كتاب الله ، ولا يشاهدونه إلا
ساجدا لله راكعا ..

وتستبد بعكرمة المعاني السامية من فعل رسول الله بأهل مكة
حينما عفا عنهم وهو المنتصر الظافر القادر ، لا .. بل يزيد ﷺ في
مقام الذين حاربوه مقاما ، ولا يتخذهم عبيدا ، أو يجعل منهم أداة
سخرية ونكاية ، كما كانوا في جاهليتهم يتخذون من المستضعفين

سخرية ونكابة ، يوم امن المستضعفون بالواحد الأحد في دنيا الأصنام
وعبيدها من قريش ١١٠

ويظهر جلال التوبة على وجه عكرمة ، فينقلب حربا على البقية
المنافقة من مشيخة قريش الضالة ، التي تستر برداء الإسلام لتمنع
دماءها ، وتخفي في كوامنها البغض للمسلمين في نواديها .. فما يكون
من أمر المنافقين إلا أن يدفعوا عن أنفسهم الموت على يديه بغشيان
المسجد الحرام لأداء الصلاة ، حتى إذا ما كان يمر عليهم عكرمة في
عزته وقوته بين حين وآخر ، تهامسوا بصوت خافت .. وقالوا :

— هذا عكرمة بن عدو الله أبي جهل ١١

ويغضب عكرمة من قولهم ، ولكنه لا يرضى أن يبطش بهم
من أجل أيه الكافر ، فيستعيد بذلك حياة القبلية الكافرة ، فيكفر بعد
إيمان .. ويسرع إلى النبي ويخبره الخبر ، فيغضب رسول الله ويرب على
كتف سيد بنى مخزوم ويستر ضيه ، ثم يجمع الناس في البيت الحرام ويقول :

— لا تسبوا أباه ، فإن سب الميت يؤذى الحي .. ثم قال ﷺ :

— لا تقولوا عكرمة بن أبي جهل .. بل ابن عمرو بن هشام

وارتفعت رايات الجهاد بعد فتح مكة ، فسارت جيوش الرحمن
تبتق صروح الكفر صرحا صرحا ، مبتدئة بهوازن وثقيف .. وبلى
عكرمة من خلالها البلاء العظيم .. حتى قرت به عين الرسول
الأعظم ، فجزاه جزاء الأبطال ، فاستعمله أميرا على هوازن ..
وذهب الرسول إلى الملأ الأعلى .. وارتدت قبائل العرب

من أدنى الجزيرة وأقصاها ، ولولا رجال أخلصوا لله كمكرمة ، لذهب الإسلام بذهاب رسوله ..

لقد سارت جيوش أنى بكر إلى ميادينها الرهيبة لحرب المرتدين ، وسار في مقدمة أحدها عكرمة إلى أخطر المعارك وأصعبها ، فقضى على أمر بنى حنيفة وأمر رسولها الكذاب مسيلة .. ثم بعثه أبو بكر على رأس جيش إلى عمان ، فخاض المعركة الهائلة في ربوعها ، حتى أعاد للإسلام مجده وعزته ، ومن ثم اقتحم مهرة ، فكتب الله له النصر ، وعاد المرتدون إلى حضيرة الإسلام من جديد ..

وانتهت حروب الردة ، ليستأنف الفتح سبيله إلى الأرض التي حملت أثقال الكفر آلاف السنين ، ولتخوض جيوش الإسلام ساحات الوغى بميادين فارس والروم في وقت واحد ..

وقبل أن يتحرك جيش المسلمين لحرب قيصر في ميدان الشام ، وقف أبو بكر يستعرضه بالجرف على بعد ميلين من المدينة ، فبصر بخباء عظيم حوله ثمانية أفراس ورماح ، وعدة ظاهرة ، فأنتهى إليه فإذا هو خباء عكرمة ، فسلم عليه خليفة رسول الله ولم يملك أن قال :

— جزاك الله يا عكرمة خيرا

ولما عرض الخليفة عليه المعونة من بيت المال ، أجابه عكرمة وقال :

— لا حاجة لى فيها ، معى ألف دينار !!

وفى اليرموك وقف عكرمة أمام جيش الروم الهائل ، يقول فى حلا من حوله فى الساعة العصبية :

— قاتلت رسول الله فى كل موطن ، وأفر منكم اليوم ؟! ثم نادى :

— من يبايعني على الموت ؟

وأسرع إليه ابنه عمر بن عكرمة ، وعمه الحارث بن هشام
وضرار بن الأزور ، على رأس أربعمائة من وجوه المسلمين
وفرسانهم ، فقاتلوا جميعا خلف عكرمة أمام فسطاط خالد بن الوليد
أمير الجيش . وكانت لحظات رهيبة أذهلت الأعداء الأشداء عن
النضال ، حين برز عكرمة كالموت يحصد رقاب الروم بالعشرات
دون كلل أو تراجع .

ونأخذ الشفقة والإشفاق بعكرمة من قلوب المسلمين كل مأخذ ،
وبتقدم بعضهم إليه ، وقد جرحت الرماح صدره ووجهه ، ويقول :

— اتق الله وارفق بنفسك !!

ويصيح عكرمة على الملأ ، ويقول :

— كنت أجاهد بنفسى عن اللات والعزى فابذلها لها ، أفاستبقونها

الآن عن الله ورسوله ؟ لا والله أبدا . !!

وتصالحت السيوف للمرة الأخيرة بين جماعة عكرمة وبين
أعدائهم ، وصدق عكرمة البلاء طالبا للأجر وسعيًا إلى الشهادة .
فكان النصر .. وكانت من ورائه الشهادة ..

واحتمل المسلمون عكرمة وابنه في الرمي الأخير من بين
الشهداء إلى فسطاط الأمير ، فخرج خالد يبكي ، فوضع رأس عكرمة
على نخذه ورأس عمر بن عكرمة على ساقه ، وجعل يقطر في حلقها
الماء وهما لا يدريان ... لقد كانا ينظران إلى مكانيهما بين مراتب
الشهداء في عليين ..